الحملة الفرنسية العسكرية على الجزائر 1830-3-

4-الحملة العسكرية الفرنسية و سقوط مدينة الجزائر 1830:

1.4. دوافع الحملة:

لم تكن حادثة المروحة سوى ذريعة أتخذتها فرنسا لتبرير غزوها للجزائر عسكريا،و في هذا الصدد فند أحد الفرنسيين((مارسيل إمريت)) إدعاءات فرنسا الواهية حول احتلالها الجزائر بقوله((لم يكن هدف فرنسا من الحملة القضاء على القرصنة،لأن القرصنة توقفت منذ عام 1818، و الدليل على ذلك أننا لم نجد في سجل الغنائم البحرية الجزائرية سوى 12 سفينة إسبانية، و سفينتين بابويتين، و أن هاتين الدولتين كانتا في حرب مع الجزائر.كما أن قضية تحرير الأسرى المسيحيين،لم تكن سببا في شن حملة عسكرية ضد الجزائر،لأنه لم يكن يوجد في سجون الجزائر سوى مائة سجين،كانوا يعتبرون أسرى حرب)). وعليه يمكن القول أنه هناك ظروفا و دوافع حقيقية كانت وراء الحملة العسكرية الفرنسية 1830 على الجزائر، يمكن إيجازها على النحو الأتي:

-ضغط المعارضة السياسية الليبرالية على نظام شارل العاشر(1824-1830)،و المطالبة بتنحيته بسبب استبداده السياسي،لذلك فكر هذا الأخير في شن حملة عسكرية على الجزائر،لتحويل أنظار الشعب الفرنسي عن الوضع السياسي الداخلي المتأزم هذا من جهة،و تحقيق نصر عسكري على حساب الجزائر يعيد به الإعتبار لنظامه المزعزع، و عائلته آل بوربون المبعدة عن الحكم خلال فترة الثورة الفرنسية(1789-1815) من جهة أخرى.

-الظروف المالية الصعبة التي كانت تمر بها فرنسا،إضافة إلى تطورها الصناعي، ومشاكلها الاجتماعية و في مقدمتها كثرة البطالين و غيرهم من الأشخاص الذين شكلوا مصدر البلاء لنظام شارل العاشر، كل ذلك كان يدفع فرنسا في الإتجاه نحو غزو الجزائر لاستغلال خيراتها،و تحويلها إلى سوق هامة لمنتجاتها،و تصدير فائضها سكاني إليها و مشاكلهم عن طريق الهجرة و الاستيطان،و في هذا الصدد أشار التقرير الذي رفعه وزير الحربية الفرنسية((كليرمون دي طونير)) إلى الملك الفرنسي في سنة 1827 إلى الأهمية الإقتصادية البالغة التي تمتعت بها إيالة الجزائر بقوله:((توجد مراسي عديدة على السواحل الجزائرية الطويلة التي يعتبر الإستيلاء عليها فائدة كبيرة،كما تحتوي أراضيها على مناجم غنية بالحديد و الرصاص و يتوفر فيها الملح و البارود بكمية هائلة، و توجد في شواطئها ملاحات غنية و إلى جانب كل هذه الثروات توجد الكنوز المكدسة في قصر الداي و هي تقدر بأكثر من مائة و خمسين مليون

فرنك)) ، كما أن نجاح الحملة سيمكن فرنسا لا محالة التخلص النهائي من الديون الجزائرية التي في ذمتها

-اشتداد التنافس بين فرنسا و انجلترا حول مناطق النفوذ في الحوض الغربي للبحر المتوسط،لاسيما بعدما تمكنت انجلتر من السيطرة على مضيق جبل طارق في بداية القرن الثامن عشر،مما شكل خطرا دائما على مصالح فرنسا ، التي رأت أنه من مصلحتها الإستراتيجية احتلال الجزائر لاتخاذها قاعدة بحرية أمامية تواجه بها النفوذ البريطاني في هذه المنطقة.

-التعصب الديني المسيحي،ويظهر ذلك في الخطابات الرسمية الفرنسية، المحرضة على الغزو العسكري للجزائر، فوزير الحربية الفرنسية ((كليرمون طونير)) أكد في تقريره السالف الذكر على ضرورة التعجيل بشن حملة عسكرية على الجزائر،معتبرا الحملة((أنها حرب صليبية هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله ليثأر من أعداء الدين و الإنسانية-المسلمين-))، و خاطب الملك بقوله:((لعل الوقت سيجعل من حظنا نحن الفرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين))،و قامت الكنيسة الكاثوليكية بتجنيد ألاف المتطوعين من أجل التحريض و التعبئة الدينية ضد((الكفار-المسلمين-)) خدمة للحملة.

2.4.تجهيز الحملة ،سيرها،نزولها، و سقوط مدينة الجزائر1830:

في 30 جانفي 1830 قرر مجلس وزراء فرنسا إرسال حملة عسكرية إلى الجزائر، و في 7 فيفري من نفس السنة،وافق الملك شارل العاشر على مشروع الحملة، وأصدر مرسوما ملكيا عين بموجبه الجنرال الكونت دي بورمون قائدا عاما للحملة، و الأميرال دوبيري قائدا للأسطول،و منذ ذلك التاريخ بدأت التعبئة في الجيش الفرنسي و الإستعدادات لتجهيز الحملة.

وفي يوم25 ماي 1830، انطلقت الحملة من ميناء طولون الفرنسي الحربي متجهة نحو سيدي فرج، بعدما وفرت لها كل الإمكانيات المادية و البشرية اللازمة،حيث ضمت حوالي 37ألف جندي،و 675 سفينة، منها 103 سفينة حربية ،و 40 مترجما،و 4546 حصانا و بغلا، وحوالي 2300 من رجال المدفعية.كما رافق الحملة مجموعة من الجواسيس و رجال الإعلام و الثقافة سخروا أقلامهم في خدمة الحملة ،التي جلبت معها أيضا مطبعة.

و قبيل انطلاق الحملة قام الفرنسيون بطبع بيانا بالعربية،تولى جواسيسهم و قناصلهم مهمة توزيع عدة نسخ منه في الجزائر ،و المغرب، و كان الهدف منه هو اضعاف معنويات الجزائريين و دفعهم للتخلي عن مساندة الداي حسين، سيما و أن الفرنسيين أدعوا في هذا البيان:" أنهم قادمون إلى الجزائر لمحاربة الأتراك و ليس الأهالي، و أنهم سيحمون الأهالي

ولا يحكمونهم، و أنهم سيحتلامون دين الأهالي"،كما هدف البيان إلى ضمان حياد المغرب و تونس و الحاج أحمد باي قسنطينة.

وفي 14 جوان 1830 تم إنزال جنود الحملة بمنطقة سيدي فرج،التي اتخذها الغزاة كقاعدة عسكرية خلفية للانطلاق في هجوماتهم و التوغل نحو المناطق الداخلية و الزحف على مدينة الجزائر،لكنهم واجهوا مقاومة باسلة من طرف الأهالي في معركة أسطاوالي19 جوان،التي تلقى فيها الجيش النظامي(الانكشاري) الجزائري ضربة موجعة،حيث تكبد خسائر جسيمة بشرية و مادية،و انحطت معنوياته بعدما فر قائده((إبراهيم آغا صهر الداي حسين)) من الميدان،تاركا وراءه الجيش متشتتا.وقد حاول الداي حسين إعادة هيكلة الجيش،حيث قام بعزل إبراهيم أغا و عين مكانه مصطفى بومزراق باي التيطري،و حاولت قواته التصدي بكل شجاعة للقوات الفرنسية في معركة سيدي خالف في نهاية شهر جوان،غير أن الفرنسيين تمكنوا من شق صفوفها،بفضل أسلحتهم المتطورة و خطتهم الحربية المحكمة. و أمام اضطرار الجزائريين إلى التراجع إلى قلعة الإمبراطور(برج مولاي حسن الواقع بمرتفعات المدينة) تشجع الفرنسيون على الزحف في اتجاه المدينة و تمكنوا من الاستيلاء على القلعة(حسن الإمبراطور)،في 4 جويلية. و بدوره قام الأسطول الفرنسي بقصف تحصينات المدينة من ناحية البحر في بداية هذا الشهر.

و في ظل الوضع الخطير الذي أصبحت عليه المدينة، حاول الداي الأخذ برأي أعيان المدينة و أعضاء الحكومة بين مواصلة المقاومة أو الاستسلام،فكان اتفاقهم على الرأي الثاني، و بذلك تم تشكيل وفد تكون من كاتب الداي مصطفى قادري مصحوبا بالقنصل الإنكليزي ،إضافة إلى حمدان بن عثمان خوجة وأحمد بوضربة كمترجمين، للتفاوض مع القائد الفرنسي دي بورمون ،توج في الأخير بالتوقيع على معاهدة الإستلام 05 جويلية 1830م ، من أهم ما تضمنته مايلي:

1- تسليم القصبة و جميع القلاع الموجودة في المدينة و الميناء إلى الجيش الفرنسي
2- توفر للداي كل الحرية في اختيار المكان الذي يريده و ينتقل إليه مع عائلته و ثروته، و في حالة بقائه بالجزائر فسيكون تحت حماية القائد العام، و يخصص له حرس لضمان أمنه الشخصي و أمن أسرته
3- يتعهد القائد العام لجميع جند الانكشارية بضمان نفس الإمتيازات و الحماية الممنوحة للداي
4- يتعهد القائد العام باحترام حرية العمل بالدين الإسلامي،و حرية السكان على مختلف طبقاتهم و ديانتهم،و الحفاظ على أملاكهم و تجارتهم و صناعتهم، و احترام نساؤهم .

و بعد التوقيع على معاهدة الاستسلام و دخول الغزاة الفرنسيون إلى المدينة و العبث بها،غادر الداي حسين الجزائر في العاشر من شهر جويلية 1830، و كان مصحوبا بمائة و عشرة من أفراد عائلته و حاشيته على متن سفينة((جان دارك)) الفرنسية،متجها إلى نابولي

التي أقام بها لفمدة قصيرة، ثم انتقل منها إلى ليفورن بايطاليا التي استقر بها مع عائلته،ثم لجا بعد ذلك إلى الاسكندرية بمصر ليكمل بقية حياته بها حتى وفاته سنة 1838.

ترك الداي وراءه البلاد في فوضى و اضطراب كبيرين، بسب الانتهاكات التي قام بها جنود الحملة من نهب و سلب لخزينة أيالة الجزائر و أملاك الجزائريين،لكن ذلك لم يحد من عزيمة الشعب الجزائري في حمل لواء المقاومة دفاعا عن وطنه و هويته الحضارية و كرامته و شرفه.و هو ما سنتطرق إليه لاحقا

5-المواقف الدولية و الإقليمية من الحملة الفرنسية:

1.5.موقف الدولة العثمانية:

لم تكن قادرة على مواجهة فرنسا بحزم،في سبيل إنقاذ الجزائر،بسبب انشغالها بثورات البلقان و التهديد الروسي المستهدف لنفوذها في هذه المنطقة،إضافة إلى تهديدات محمد علي لنفوذها بالشام، لذلك فضلت الحل السلمي لتسوية الخلاف القائم بين إيالة الجزائر و فرنسا من خلال إرسال مبعوثها (خليل أفندي) إلى الجزائر سنة 1829 للقيام بهذه المهمة ،إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى حل يرضي الطرفين المتصارعين،كما فشل بدوره المبعوث الأخر (الطاهر باشا) في تحقيق المهمة، الذي ارسلته الدولة العثمانية في مارس 1830 إلى الجزائر ، لمنعه قائد الحصار الفرنسي من النزول بميناء الجزائر،كما رفضت السلطات التونسية دخوله إلى الجزائر برا.

كما حاولت الدولة العثمانية دعم الحاج أحمد باي في مقاومته للاحتلال الفرنسي بالشرق الجزائري ،حيث ارسلت اليه أربع سفن ضمت جنودا و حوالي 12 مدفعا و مائة و خمسين من رماة المدافع،إلا أن هذه المساعدات لم تصل أحمد باي،لاستيلاء عليها باي تونس،الذي رفض كذلك السماح كذلك للجنود الأتراك بالنزول في ميناء تونس،و هذا بسبب وقوع هذا الأخير تحت تأثير النفوذ الفرنسي،و لتخوفه الدائم من داي الجزائر

2.5.المواقف الأوروبية:

أ-بريطانيا:

عارضت في البداية الحملة الفرنسية خشية من سيطرة فرنسا على منطقة شمال إفريقيا بصورة دائمة،و من ثمة تهدد مصالحها و تفوقها في البحر المتوسط ،ثم تغير موقفها بعد نجاح ثورة جويلية بباريس 1830 في الإطاحة بحكم شارل العاشر و وصول حزب الأحرار إلى السلطة بقيادة لويس فيليب ،حيث راحت تساند الإحتلال الفرنسي للجزائر

ب-بقية الدول الأوروبية:

أيدت روسيا الحملة الفرنسية ضد الجزائر و بدون تردد، و دعمتها بضباط مختصين في الهندسة العسكرية،هادفة من وراء ذلك الحصول على تأييد فرنسا في تحقيق طموحاتها التوسعية على حساب النفوذ العثماني بالبلقان،و نفس الموقف اتخذته

بروسيا الألمانية ، و كانت تهدف من وراء ذلك إبعاد أنظار فرنسا عن منطقة الراين التي كانت محل صراع بينهما،كما شجعت الحملة كل من مملكة سردينيا و مملكة بيدمونت و مملكة نابولي ،و أظهرت استعدادات حماسية لدعم فرنسا ماديا و بشريا لإنجاح حملتها العسكرية للتخلص من ((عش القرصنة)) ،و اعتبرت الحملة بالعمل المفيد لخدمة المسيحية.كما بارك الحملة كل من البابا بيوس الثامن بروما،و و السويد و الدانمارك و هولندة.و حذت حذوها إسبانيا بعدما وافقت على المطالب الفرنسية المتمثلة في فتح موانئها في وجه السفن الفرنسية للتموين. وفي الأخير خضعت النمسا للأمر الواقع

3.5.موقف بلدان المغرب العربي:

أتصف بالسلبية،فحاكم تونس(الباي حسن)،سارع إلى تهنئة قائد الجنرال دي بورمون على نجاح الحملة الفرنسية في 5 جويلية 1830،كما اعترض هذا الأخير على دخول المبعوث العثماني الطاهر باشا إلى الجزائر عبر الحدود التونسية البرية لتسوية النزاع الجزائري الفرنسي، و أستولى على المساعدات العسكرية العثمانية إلى أحمد باي الذي كان يقاوم فرنسا سنة 1837

أما السلطان المغربي (مولاي عبد الرحمان)،لم يبد تضامنه مع الجزائر، و حاول الوقوف على الحياد،إلا أنه أنحاز إلى فرنسا،عندما سمح للجيوش الفرنسية أن تتمون من الموانيء المغربية.

بينما أبدى حاكم طرابلس الغرب تضامنه و تأييده للجزائر في مواجهة العدوان الفرنسي،إلا أنه لم يكن باستطاعته تقديم مساعدات مادية بسبب ضعف إمكانيات النيابة(طرابلس)، و يتضح ذلك من خلال الرسالة التضامنية التي أرسلها إلى الداي حسين،مخاطبا إياه بقوله:((أما فيما يتعلق بنا فإننا لسنا أقوياء بما فيه الكفاية لنرسل لكم نجدات،إننا لا نستطيع مساعدتكم إلا بصلوات طيبة نوجهها نحن و رعايانا لله في المساجد)).